

التيسير في أصول التفسير

للشيخ / د. محمد الحمود النجدي

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً.

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً.

الحمد لله الذي جعل كتابه موعظة وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة ونوراً للمؤمنين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﷺ وعلى آله وصحبه،

ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً وبعد:

فهذا بحث ميسر في «أصول التفسير» انتخبته من مراجع شتى، ومصادر متنوعة، رجوت الله تعالى أن ينفع به طلاب علم التفسير، والراغبين في الوقوف على معاني كتاب الله العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وفق منهاج سديد، وطريق رشيد.

وقد اقتصرته فيه على المباحث المهمة في هذا الباب، ومن أراد الاستزادة، فليرجع إلى الكتب المطولة في هذا الفن، التي سنذكر بعضها.

سائلاً المولى جلت قدرته، أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره، إنه قريب مجيب، ، ،

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين^(١).

وكتبه: محمد بن حمد الحمود النجدي

الكويت - ١٤١٥هـ

ثم أعدنا فيها النظر وزدنا مادتها عام ١٤٢٨ هـ بحمد الله وتوفيقه.

١- وقد تم نشر هذا البحث في مجلة الشريعة (٩٨/٩٩) التي تصدر عن الإخوة في جمعية الشريعة جامعة الكويت، جزاهم الله خيراً.

« تمهيد »

فضل القرآن الكريم

القرآن كلام الله تعالى، وكلامه سبحانه صفة من صفات كماله وجلاله وجماله، وصفات الله عز وجل ليس يماثلها شيء ولا يشبهها، ولا يحيط العباد بشيء منها، كما قال سبحانه ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١١) وقال سبحانه عن عظمة كلماته، وسعتها وكثرتها ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (الكهف: ١٠٩) أي: لو كانت بحار الدنيا كلها حبراً تكتب به كلمات الله تعالى، لانتهدت من أولها إلى آخرها، ولم تنته كلمات الله!

وهذا من باب التقريب، لأن هذه البحار مخلوقة، وكل مخلوق منته فان، وأما كلام الله سبحانه — الذي هو صفة من صفاته — فلا حد له ولا انتهاء، فأبي عظمة وجلال وكمال فوق هذا؟!

وللإمام السعدي رحمه الله تعالى في مقدمة تفسيره، وصف مجمل رائع لكتاب الله تعالى، إذ يقول:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام، والسعداء والأشقياء، والحق والباطل، وجعله برحمته هدى للناس عموماً وللمتقين خصوصاً، من ضلال الكفر، والمعاصي والجهل، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم.

وأنزله شفاء للصدور، من أمراض الشبهات والشهوات، ويحصل به اليقين والعلم، في المطالب العاليات، وشفاء للأبدان من أمراضها وعللها، وآلامها وأسقامها.

وأخبر أنه لا ريب فيه، ولا شك بوجه من الوجوه، وذلك لاشتماله على الحق العظيم،

في أخباره، وأوامره ونواهيته.

وأنزله مباركاً، فيه الخير الكثير، والعلم الغزير، والأسرار البديعة، والمطالب الرفيعة، فكل بركة وسعادة تنال في الدنيا والآخرة، فسببها الاهتداء به واتباعه.

وأخبر أنه مصدق ومهيمن، على الكتب السابقة، فما شهد له، فهو الحق، وما رده فهو المردود، لأنه تضمنها وزاد عليها.

وقال تعالى فيه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ المائدة: ١٦

فهو هادٍ لدار السلام، مبينٌ بطريق الوصول إليها، وحاتٌّ عليها، كاشفٌ عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام، ومحذرٌ عنها.

وقال تعالى مخبراً عنه: ﴿الرَّكِنُ أَبْصَرَ أَعْيُنُهُمْ أَفِئَتُهُمْ أَقْبَلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

هود: ١. فبين آياته أكمل تبين، وأتقنها أي إتقان، وفصلها بتمييز الحق من الباطل، والرشد من الضلال، تفصيلاً كاشفاً للبس، لكونه صادراً من حكيم خبير، فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر، ولا ينهى إلا عن المضار الدينية والدينية.

وأقسم تعالى بالقرآن، ووصفه بأنه «مجيد» والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وذلك لسعة معاني القرآن وعظمتها.

ووصفه بأنه «ذو الذكر» أي: يتذكر به العلوم الإلهية، والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ويتعظ به من يخشى.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يوسف: ٢

وأنزله بهذا اللسان لنعقله ونفهمه، وأمرنا بتدبره، والتفكير فيه، والاستنباط لعلومه.

وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير، محصل للعلوم والأسرار.
فله الحمد والشكر والثناء، على أن جعل كتابه هدى وشفاء، ورحمة ونوراً، وتبصره
وتذكرة، وعبرة وبركة، وهدى وبشرى للمسلمين.
فإذا علم هذا، علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه، والاهتداء بها، وكان حقيقاً بالعبد أن
يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه، بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك.

مكانة علم التفسير والعناية به

قال العلامة الأصبهاني: أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن، وبيان ذلك: إن علم التفسير قد حاز الشرف من جهات ثلاث: من جهة الموضوع، ومن جهة الغرض، ومن جهة شدة الحاجة إليه.

أما من جهة الموضوع: فلأن موضوعه كلام الله سبحانه الذي هو ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة.

وأما من جهة الغرض، فلأن الغرض منه الاعتصام بالعروة الوثقى، والوصول إلى السعادة الأبدية التي لا تفتنى، إذ به معرفة مراد الله سبحانه من كلامه المنزل على نبيه صلواته وسلامه عليه، ومعرفة مواضع أمره فتوتى، ومواضع نهيه فتجتنب.

وأما من جهة شدة الحاجة إليه: فلأن كل كمال ديني أو دنيوي عاجلي أو آجلي مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى. قال مجاهد: أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل.

وقال الحسن: والله ما أنزل الله آية، إلا وهو يحب أن تعلم فيما أنزلت، وما أراد الله بها.

وذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٤/١): عن إياس بن معاوية أنه قال: مثل من يقرأ القرآن ومن يعلم تفسيره أو لا يعلم، مثل قوم جاءهم كتاب من صاحب لهم ليلاً، وليس عندهم مصباح، فتدخلهم لمجيء الكتاب روعة، لا يدرون ما فيه، فإذا جاءهم المصباح عرفوا ما فيه.

وأخرج أحمد والنسائي وابن ماجه: عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ لله أهلين من الناس» قالوا: يا رسول الله، من هم؟ قال: «هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته.»

فالمفسرون لكتاب تعالى، هم الجديرون لأن يكونوا أهل الله وخاصته، لأنهم هم أعلم الناس بكتاب ربهم جل جلاله، وتقدست أسماؤه، ومعانيه وأحكامه.

و قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ البقرة: ٢٦٩

قال علي بن ابن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله.

وأخرج ابن أبي حاتم: عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنتني، لأنني سمعت الله يقول ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ العنكبوت: ٤٣ وبين الله تعالى أنه إنما أنزل الكتاب ليتدبر ويفهم، فقال: ﴿كُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثًا لَكُمْ مِنْكُمْ مَذْهَبٌ لِيَنْظُرُوا مَا كُنْتُمْ تُخَالِفُونَ بِأَنفُسِكُمْ مَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بِهِ حَقٌّ وَمَنْ يَخَالِفْ فَأُولَئِكَ لِيُصَِّبَهُمُ الْعَذَابُ الْكَاسِبُ﴾ ص: ٢٩.

وحت عبادته على تدبره فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ النساء: ٨٢ وذم المعرضين عن ذلك، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ محمد: ٢٤ قال ابن كثير رحمه الله في مقدمة تفسيره: فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك وطلبه من مظانته، وتعلم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لُبِّيْنْتُهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ آل عمران: ١٨٧ وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ آل عمران: ٧٧، فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا، بإعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها واشتغالهم

بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله .

فعلينا أيها المسلمون أن تنتهي عما ذمهم الله تعالى به، وأن تأتمر بما أمرنا به من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهميه ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴿١٧﴾ الحديد: ١٦ - ١٧، ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها كذلك يلين القلوب بالإيمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمل المسئول أن يفعل بنا هذا، إنه جواد كريم انتهى كلامه رحمه الله .

المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبينها

إن القرآن الكريم أنزله الله تعالى لصالح أمور الناس كافة، ورحمة وهدى، قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩) النحل: ٨٩ وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (٩) الإسراء: ٩، فهو كتاب هداية في كل شيء في المعتقد والشريعة والسلوك، أجملها الله تعالى في ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩٠) النحل: ٩٠ وقد شملت هذه مقاصد الشريعة كلها.

ويمكن أن نوجز مقاصد القرآن الكريم الأصلية في الأمور التالية:

أولاً : إصلاح المعتقد، وإيضاح التوحيد والإيمان والدين الخالص، وإبطال الشرك والرد على حجج المشركين ومعتقداتهم الفاسدة، كقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٦٥) الزمر: ٦٥ وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) الأنبياء: ٢٥ وقوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (٦٥) مريم: ٦٥ قد حوت أنواع التوحيد الثلاثة.

ثانياً : بيان الشريعة، وهي الأحكام التي شرعها الله تعالى، وأمر عباده بالالتزام بها، ونهاهم عن مخالفتها، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ (المائدة: ٤٨)، وقال ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ﴾ (النساء: ١٠٥).

ثالثاً: تهذيب الأخلاق، والأمر بحاسنها والحث على الاتصاف بها، والتحذير من

مساوى الأخلاق.

قال سبحانه بعد أن ذكر جملة من الأنبياء في سورة الأنعام ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْدَرَهُ﴾ الأنعام: ٩٠ وقال عن نبيه ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٤﴾ القلم: ٤.

ولما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ قالت: كان خلقه القرآن. أي: إذا أردت معرفة خلقه ﷺ فاقرأ القرآن فكل أمر الله تعالى به، وحث على التخلق به، فإنه من أخلاقه ﷺ لمسارعة لامثال أوامر ربه تعالى.

رابعا: سياسة الأمة، وهو باب عظيم في القرآن، القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها، كالإرشاد إلى الاجتماع ونبذ الفرقة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ آل عمران: ١٠٣، وقوله ﴿وَلَا تَنزَعُوا أُنفُسَكُمْ وَلَا تَنزَعُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنزَعُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنزَعُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ الأنفال: ٤٦، وقوله: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ الشورى: ٣٨، وقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ النساء: ٥٩.

خامسا: ذكر القصص وأخبار الأمم السابقة وأنبيائهم، وما جرى من الحوادث الماضية ذات العبر والعظات، للتأسي بهم في أحوالهم وأخلاقهم، ولتعلم سنن الله تعالى في عباده، قال سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ يوسف: ٣.

سادسا: ذكر المواعظ والتخويف، والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا في آيات الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ﴿٤٥﴾ ق: ٤٥. وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ الأنبياء: ٤٥.

سابعاً : الإعجاز بالقرآن، والتحدي به في لفظه ومعناه، وأحكامه وأخباره، وليكن آية دالة على صدق الرسول ﷺ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ البقرة: ٢٣ - ٢٤ .

ما هو القرآن الكريم ؟

تعريفه: هو الكتاب المنزل على رسول الله ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، المكتوب في المصاحف، المنقول نقلاً متواتراً.

وأول ما نزل فيه ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ العلق: ١ - ٥ وآخر آية نزلت على أحد الأقوال هي قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۝ المائدة: ٣ .

وهو مائة وأربع عشرة سورة، نزل منجماً (مفرقاً) ثلاثاً وعشرين سنة.

ما هي أصول التفسير؟

تعريفها: الأصول: جمع أصل، وهو في اللغة عبارة عما يُفتقر إليه، ولا يفتقر هو إلى غيره، أو الأصل: ما يثبت حكمة بنفسه، ويُبنى عليه غيره (التعريفات للجرجاني).

وأما التفسير: ففي اللغة: هو الكشف والإظهار، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ نَفْسِيرًا﴾ (الفرقان: ٣٣، أي: بياناً وتفصيلاً).

فالتفسير لغة: هو الكشف والبيان.

أما شرعاً: فهو توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها، وسبب نزولها.

فعلم أصول التفسير: هو ما يبنى عليه علم التفسير، حسب قواعده وضوابطه ومناهجه.

أما "علم التفسير" فعرفه الزركشي: بأنه علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، واستخراج أحكامه وحكمه (١/١٣، ١٤).

أحسن طرق التفسير

أولاً: تفسير القرآن بالقرآن

إن أصح الطرق في تفسير القرآن، أن يفسر بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فسّر في مكان آخر، وما اختصر في موضع، فقد بسط في موضع آخر.

فمثلاً، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢) ولم يبين هنا ما العالمون؟

وبين ذلك في سورة الشعراء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ (٢٤) الشعراء: ٢٣ - ٢٤ ومثل قوله تعالى: ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٤) الفاتحة: ٤؛ لم يبينه هنا، ووقع في سورة الانفطار سؤال عنه وجواب، وهو قوله: ﴿ ثُمَّ مَا آذَرْنَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (١٨) يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ (١٩) الانفطار: ١٨ - ١٩ وتارة يبهم الاسم في موضع، ويسمى في موضع آخر، كقوله تعالى في سورة الدخان ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونِ ﴾ (٣٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ (٣٦) وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ ﴾ (٣٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ (٣٨) الدخان: ٢٥ - ٢٨ فالقوم اسم جمع وقد أبهمه هنا، وكذلك في سورة الأعراف في قوله: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا ﴾ (١٣٧) الأعراف: ١٣٧، ولكنه بين في سورة الشعراء في قوله تعالى في القصة بعينها ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونِ ﴾ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٥٩) الشعراء: ٥٧ - ٥٩.

و من أمثله قوله تعالى: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ (٤٣) النمل: ٤٣؛ فإنه أبهم القوم هنا، ولكنه أشار أنهم سبأ بقوله عن الهدهد مقررًا له ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِءَ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنِي يَاقِينَ ﴾ (٢٢) النمل: ٢٢.

ثانياً: تفسير القرآن بالسنة النبوية

فإنها شارحة للقرآن، وموضحة له، ومبيّنة لما أشكل منه وغمض.

قال تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ ﴾ (٤٤) النحل: ٤٤.

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٦٤﴾ النحل: ٦٤.

بل قال الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ ﴿١٠٥﴾ النساء: ١٠٥.

فالنبي ﷺ كان يبين القرآن، وكان الصحابة يرجعون إليه إذا أشكل عليهم فهم آية من الآيات، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها:

١- ما جاء عن ابن مسعود ﴿ قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ الأنعام: ٨٢ شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله، وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ﴿ إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٍ عَظِيمٌ ﴾ ﴿١٣﴾ لقمان: ١٣ إنما هو الشرك» متفق عليه.

٢- وعن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ الأنفال: ٦٠ ألا وإن القوة الرمي، ألا وإن القوة الرمي» أخرجه أحمد ومسلم.

٣- حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نُوقِسَ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُدْبُ» فقالت: ألم يقل ﷺ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ ﴿٧﴾ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴿٨﴾ الانشقاق: ٧-٨ قال ﷺ: «إنما ذلك العرض» رواه البخاري.

٤- وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر أعطانيه ربي في الجنة» رواه أحمد ومسلم. ومن القرآن ما لا يمكن معرفته والعمل به، إلا بالاطلاع على السنة النبوية، كقوله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ النور: ٥٦ فقد بين النبي ﷺ للأمة كيف تصلي، وأمرها بقوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي».

وكذا بين للأمة في أي شيء تكون الزكاة، وبين أنصبتها ومقاديرها، وهذا البيان هو المقصود بقوله ﷺ: «ألا وإني أتيت الكتاب ومثله معه» رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

ثالثاً: التفسير بأقوال الصحابة رضي الله عنهم

فإذا لم يجد المفسر التفسير في السنة النبوية، رجع إلى أقوال الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، فإنهم أعلم بالناس بالتفسير، لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزول القرآن، ولقربهم من رسول الله ﷺ ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح والتقوى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن، كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ النحل: ٤٤ يتناول هذا وهذا، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: «حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن، كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات، لم يتجاوزها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً».

ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة، قال أنس: «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا» رواه أحمد في مسنده، وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمانين سنين، أخرجه مالك.

وذلك أن الله تعالى قال: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ ص: ٢٩ وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ النساء: ٨٢ وتدبر الكلام دون فهم معانيه لا يمكن. اهـ^(١).

واشتهر منهم الخلفاء الأربعة وابن مسعود ابن عباس وأبي ابن كعب وزيد ابن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير وأنس بن مالك وأبو هريرة وجابر وعبد الله بن عمرو وابن عمر، وأكثر من روى من الخلفاء الأربعة: علي بن أبي طالب، وكان السبب في ذلك تقدم وفاتهم رضي الله عنهم أجمعين.

و جاء عن ابن مسعود قوله: «و الذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله، إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحدٍ أعلم بكتاب الله مني، تناله المطايا، لأتيته» رواه ابن جرير.

وأما ابن عباس، فقد دعا له رسول الله ﷺ بقوله: «اللهم علمه التأويل، وفقهه في الدين» فكان ترجمان القرآن، وكان عمر بن الخطاب يثق بتفسيره ويجلّه.

ويمتاز ابن عباس برجوعه في فهم معاني ألفاظ القرآن إلى الشعر العربي، لمعرفة بلغة العرب، وإمامه بديوانها.

ولا شك أن التفسير بالمأثور عن الصحابة له قيمته العظيمة، وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن تفسير الصحابي له حكم المرفوع، إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول، وكان مما ليس للرأي فيه مجال.

أما ما يكون للرأي والفقهاء فيه مجال، فهو موقوف عليه، ما دام لم يسنده إلى رسول الله ﷺ.

والموقوف على الصحابي من التفسير، يوجب بعض العلماء الأخذ به، لأنهم رضي الله

١- مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص ٥٣).

عنهم أهل اللسان العربي الفصيح، ولما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها لقربهم من النبي ﷺ، ولما لهم من الفهم الصحيح.

قال الإمام الزركشي في البرهان: «اعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل، وقسم لم يرد، والأول: إما أن يرد عن النبي ﷺ، أو الصحابة، أو رؤوس التابعين، فالأول: يبحث فيه عن صحة السند. والثاني: ينظر في تفسير الصحابي، فإن فسره من حيث اللغة، فهم أهل اللسان، فلا شك في اعتماده. أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه»^(١).

وقال الحافظ ابن كثير في مقدمة تفسيره: «وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدركوا ذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح والعمل الصالح، ولا سيما علماءهم وكبرائهم كالأئمة الأربعة، والخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين، وعبد الله ابن مسعود رضي الله عنهم».

رابعاً: التفسير بأقوال التابعين

كما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير، اشتهر بعض أعلام التابعين الذين أخذوا عنهم التفسير، بالإضافة إلى ما كان لهم من اجتهاد ونظر.

قال الأستاذ محمد حسين الذهبي رحمه الله: وقد اعتمد هؤلاء المفسرون في فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء في الكتاب نفسه، وعلى ما رووه عن الصحابة عن رسول الله ﷺ، وعلى ما رووه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم، وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء في كتبهم، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في

١- مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص ٣٣٧)

كتاب الله تعالى.

وقد روت لنا كتب التفسير كثيراً من أقوال هؤلاء التابعين في التفسير، قالوها بطريق الرأي والفهم والاجتهاد، ولم يصل إلى علمهم شيء فيها عن رسول الله ﷺ، أو عن أحد من الصحابة.

وقد قلنا فيما سبق: إن ما نقل عن الرسول ﷺ وعن الصحابة من التفسير لم يتناول جميع آيات القرآن، وإنما فسروا ما غمض فهمه على معاصريهم، ثم تزايد هذا الغموض على تدرج كلما بعد الناس عن عصر النبي ﷺ والصحابة، فاحتاج المشتغلون بالتفسير من التابعين إلى أن يكملوا بعض هذا النقص، فزادوا في التفسير بمقدار ما زاد من غموض، ثم جاء من بعدهم فأتموا تفسير القرآن تبعاً، معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب ومناحيهم في القول، وعلى ما صح لديهم من الأحاديث التي حدثت في عصر نزول القرآن، وغير هذا من أدوات الفهم ووسائل البحث»^(١).

لقد اتسعت الفتوحات الإسلامية، وانتقل كثير من أعلام الصحابة إلى الأمصار المفتوحة، ولدى كل واحد منهم علم، وعلى يد هؤلاء تلقى تلاميذهم من التابعين علمهم، وأخذوا عنهم، ونشأت مدارس متعددة.

ففي مكة نشأت مدرسة ابن عباس، واشتهر من تلاميذه بمكة: سعيد بن جبير، ومجاهد وعكرمة مولى ابن عباس، وطاوس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح.

وفي المدينة اشتهر أبي بن كعب بالتفسير أكثر من غيره، وكثر ما نقل في ذلك. واشتهر من تلاميذه من التابعين الذين أخذوا عنه مباشرة بالواسطة: زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد ابن كعب القرظي.

١- التفسير والمفسرون (١/ ٩٩-١٠٠).

وفي الكوفة نشأت مدرسة ابن مسعود رضي الله عنه، التي يعتبرها العلماء نواة مدرسة أهل الرأي، وعرف بالتفسير من أهل العراق كثير من التابعين، اشتهر منهم: علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومرة الهمداني، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي.

هؤلاء هم مشاهير المفسرين من التابعين في الأمصار الإسلامية، الذين أخذ عنهم أتباع التابعين من بعدهم، وخلفوا لنا تراثاً علمياً خالداً.

واختلف العلماء فيما أثر عن التابعين من تفسير إذا لم يؤثر في ذلك شيء عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة، أيؤخذ بأقوالهم أم لا؟

فذهب جماعة إلى أنه لا يؤخذ بتفسيرهم لأنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التي نزل عليها القرآن، فيجوز عليهم الخطأ في فهم المراد.

وذهب أكثر المفسرين إلى أنه يؤخذ بتفسيرهم، لأنهم تلقوه غالباً عن الصحابة.

والذي يترجح: أنه إذا أجمع التابعون على قول، فإنه يجب علينا أن نأخذ به، ولا نتعداه إلى غيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم.

وهذا صحيح، أما إذا اجتمعوا على الشيء فلا يُرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في لغة القرآن أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك»^(١).

١- مقدمة في أصول التفسير (ص ١٠٥).

والاختلاف في تفسير الآيات المنقول عن الصحابة والتابعين قليل جداً بالنسبة إلى من بعدهم، وأكثره لا يعدو أن يكون اختلافاً في التعبير مع اتحاد في المعنى، أو يكون من تفسير العام ببعض أفراده على طريق التمثيل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: « والخلاف بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، وذلك صنفان:

أحدهما: أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى، ومثال ذلك تفسيرهم للصرط المستقيم، فقال بعضهم: هو القرآن، أي اتباعه، وقال بعضهم: هو الإسلام. فهذان القولان متفقان، لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن، ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر.

الصنف الثاني: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه، على سبيل التمثيل وتبنيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومته وخصوصه.

مثال ذلك: ما نقل في قوله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ فاطر: ٣٢، فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيق للواجبات، والمنتهك للحرمت.

والمقتصد: يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات، والسابق: يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات، فالمقتصدون هم أصحاب اليمين، والسابقون السابقون أولئك المقربون.

ثم إن كلاً منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات، كقول القائل: السابق: الذي

يصلي في أول الوقت، والمقتصد: الذي يصلي في أثنائه، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار.

أو يقول: السابق: المحسن بالصدقة، والظالم بأكل الربا، والعاذل بالبيع، وأمثال هذه الأقاويل^(١).

وكاختلافهم في تفسير اللغو في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾^(٣) المؤمنون: ٣.

وقد يكون الاختلاف لاحتمال اللفظ لأمرين، كلفظ ﴿عَسَّسَ﴾ الذي يراد به إقبال الليل وإدباره، أو لأن الألفاظ التي عبر بها عن المعاني متقاربة، كما إذا فسر بعضهم (تُبَسَّل): بـ تجبس، وبعضهم: بـ تُرهن، لأن كلا منهما قريب من الآخر.

خامساً: تفسير القرآن بالرجوع إلى اللغة العربية

فقد جرت سنة الله تعالى بأن يرسل كل رسول بلسان قومه ليطم تخاطبه معهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ إبراهيم: ٤ ولما كان محمد ﷺ عربياً من أمة تتكلم باللسان العربي، فإن الكتاب الذي أنزل عليه عربي، وبذلك نطق محكم التنزيل ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٢) يوسف: ٢.

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَنْزَلْنَاهُ لَنَنْزِيلٍ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٩٢) نزل به الرُّوحُ الْأَمِينُ^(١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ^(١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ^(١٩٥) الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥ فألفاظ القرآن عربية فصيحة، لا تخالف لغة العرب، بل هي في قمة البلاغة والفصاحة والبيان.

فعن ابن عباس أنه سئل عن قوله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ القلم: ٤٢ قال:

١- مقدمة في أصول التفسير (٣٨- ٤٤) باختصار و تصرف يسير.

إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه من الشعر فإنه ديوان العرب .. رواه ابن جرير (٢٩) /
(٢٤) والحاكم والبيهقي في الأسماء.

وقد اختلف العلماء في ألفاظ من القرآن الكريم هل هي من لغات أخرى وعربت، أم هي عربية بحتة ولكنها مما تواردت عليها اللغات ؟ مثل: الفردوس، القسطاس، السندس، الاستبرق، سجيل، قسورة، القرطاس، ناشئة، أوبى.

فالأكثر ومنهم الشافعي وابن جرير وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر وابن فارس على عدم وقوع المعرب في القرآن، لقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ يوسف: ٢ وقد شدد الشافعي النكير على القائل بذلك (انظر الرسالة ص ٤٠-٣).

وقال الإمام ابن جرير: ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير ألفاظ القرآن أنها بالفارسية والحبشية والنبطية أو نحو ذلك، إنما اتفق فيها توارد اللغات، فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام بعد أن حكى القول بالوقوع عن الفقهاء والمنع عن أهل العربية: والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، لكنها وقعت للعرب فعربت بالسننها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال: إنها عربية فهو صادق، ومن قال: أعجمية فصادق.

ومال إلى هذا القول الجواليقي وابن الجوزي وآخرون.

(انظر الإتيان للسيوطي ١ / ١٧٨ - ١٨٠).

ضوابط التفسير اللغوي:

لا بد عند التفسير اللغوي للقرآن من التنبه لبعض الضوابط التي ذكرها علماء التفسير. فقد حذر القرطبي في مقدمة تفسيره من: « أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسمع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير، فمن لم يُحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية، كثر غلظه، ودخل في زُمرة من فسّر القرآن بالرأي»^(١).

فمن الألفاظ المبدلة مثلاً من المعاني اللغوية إلى الشرعية: التيمم الوضوء الصلاة الزكاة الحج العمرة.

وقال الإمام المحقق ابن القيم: « وينبغي أن يتفطن هنا لأمر لا بد منه، وهو أنه لا يجوز أن يُحمل كلام الله عز وجل ويفسر بمجرد الاحتمال النحوي والإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام، ويكون الكلام به له معنى ما، فإن هذا مقام غلط فيه أكثر العربيين للقرآن.

فللقرآن عُرْفٌ خاص ومعانٍ معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها، ولا يجوز تفسيره بغير عُرْفه والمعهود من معانيه»^(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في بيانه لخطأ من أخطأ في تفسير القرآن بغير المنقول، وأنه حدث من جهتين: « أحدهما: قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها!

١- تفسير القرطبي (١ / ٣٤).

٢- التفسير القيم (ص ٢٦٨ ٢٦٩) باختصار.

والثاني: قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده من كان من الناطقين بلغة العرب بكلامه، من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه والمخاطب به !

فالأولون راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان ! والآخرين راعوا مجرد اللفظ، وما يجوز أن يريد به عندهم العربي، من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم وسياق الكلام.

ثم هؤلاء كثيراً ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة، كما يغلط في ذلك الذين قبلهم، كما أن الأولين كثيراً ما يغلطون في صحة المعنى الذي فسروا به القرآن، كما يغلط في ذلك الآخرون، وإن كان نظر الأولين إلى المعنى أسبق، ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق^(١).

١- مقدمة في أصول التفسير (ص ٧٩ - ٨١).

غرائب الألفاظ في القرآن

ليس المراد بغريب القرآن، اللفظ المنكر أو الشاذ أو المهجور غير المستعمل، فإن القرآن منزّه عن هذا جميعه، إنما المراد بالغريب هنا هو اللفظ الذي يخفى على بعض الناس معناه لكونهم يستعملون المرادف له بينهم، وهو ما يسمى بلغات العرب، أو لبعدهم عن معرفة العربية وألفاظها، وكثرة العُجْمَة في ألسنتهم لاختلاطهم بغيرهم من الأمم الأعجمية.

ومعرفة هذا الفن ضرورية للمفسر، ومن عرض له لفظ غريب فلا يخوض فيه بغير علم، بل ينبغي التثبت والرجوع إلى كتب أهل الفن وعدم الخوض بالظن، فهؤلاء هم الصحابة وهم العرب العرباء، وأصحاب اللغة الفصحى ومن نزل القرآن عليهم وبلغتهم توقفوا في ألفاظ، لم يعرفوا معناها فلم يقولوا فيها شيئاً.

فعمر رضي الله عليه توقف في معنى «الأب» في قوله تعالى: ﴿وَفَكَهَةً أَبَاً﴾ عيس: ٣١ كما سيأتي ذكره.

وأخرج أبو عبيد في فضائل القرآن: «عن مجاهد عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتاني أعربيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها.

وعن سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ مريم: ١٣ فقال: سألت عنها ابن عباس فلم يجب فيها شيئاً^(١).

أما الكتب المؤلفة في هذا الفن فكثيرة منها: كتاب «غريب القرآن» لابي محمد ابن

١- انظر الإتيان (١ / ١٤٩ / ١٥٠) وقد ساق ما ورد من تفسير الغريب من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس والتي اعتمد عليها البخاري في صحيحه.

قتيبة، و«المفردات» للراغب الأصبهاني، و«تفسير غريب القرآن» لابن الملقن.

تدوين التفسير

بدأ تدوين التفسير في أواخر عهد بني أمية، وأول عهد العباسيين، وكان التفسير قبل ذلك يتناقل بطريق الرواية، فالصحابه يروون عن رسول الله ﷺ، ويروي بعضهم عن بعض، والتابعون يروون عن الصحابة، كما يروي بعضهم عن بعض.

ثم بعد عصر الصحابة والتابعين، ابتدأ تدوين الحديث النبوي في الكتب، وكان التفسير أحد الأبواب التي اشتمل عليها الحديث، فلم يفرد له تأليف خاص، بحيث يفسر فيه القرآن آية آية من مبدئه إلى منتهاه.

ومن تلك الكتب الحديثية في التفسير: تفسير الثوري (١٦١ هـ) وتفسير عبد الرزاق الصنعاني (٢١١ هـ)، وعبد بن حميد (٢٤٩ هـ) وغيرهم.

ثم بعد ذلك انفصل التفسير عن الحديث وأصبح علماً قائماً بنفسه، ووضع التفسير لكل آية من القرآن ورتب على حسب ترتيب المصحف، على أيدي طائفة من العلماء كالإمام ابن جرير الطبري (٣١١ هـ) وأبي بكر بن المنذر (٣١٨ هـ) وابن أبي حاتم (٣٢٧ هـ) وأبي الشيخ (٣٦٩ هـ) وأبي بكر بن مردويه (٤١٠ هـ) وغيرهم من الأئمة.

وكل هذه التفاسير مروية بالإسناد إلى رسول الله ﷺ وإلى الصحابة والتابعين وتابع التابعين، وليس فيها شيء أكثر من التفسير المأثور، اللهم إلا ابن جرير الطبري فإنه يذكر الآثار ثم يوجهها، ويرجع بعضها على بعضها، ويذكر الإعراب، ويستنبط الأحكام الفقهية وغيرها.

ثم بدأ التوسع في الكلام على معاني الآيات، ومباحثها الفقهية واللغوية وذكر أسباب النزول ونحوها. ثم انقسم التفسير بعد ذلك إلى قسمين: تفسير بالمأثور، وتفسير بالرأي.

التفسير بالمأثور

التفسير بالمأثور: هو الذي يعتمد على صحيح المنقول بالمراتب التي ذكرناها سابقاً، من: تفسير القرآن بالقرآن، أو بالسنة، أو بما جاء عن الصحابة، أو بما جاء عن التابعين.

والتفسير بالمأثور يهتم بالآثار الواردة في معنى الآية فيذكرها، ولا يجتهد في بيان معنى من غير أصل، وكذا لا يخوض فيما لا طائل تحته مما لم يرد فيه نقل.

ولا شك أن هذا المنقول فيه الصحيح الإسناد والحسن والضعيف، وما لا أصل له أيضاً، فلا بد لمن يريد التفسير بالمأثور من الإلمام بعلم الحديث رواية ودراية.

كما لا بد له من المعرفة بحقيقة الاختلاف الذي يقع في المنقول عن السلف الذي سبق ذكره وهو أن أكثره اختلاف تنوع وأن يحسن الجمع والتنسيق بين الروايات المختلفة.

ثم عدم الاعتماد على الروايات الإسرائيلية التي امتلأت بها بعض كتب التفسير، وهي ليست من علم التفسير في شيء، بل فيها من البلايا والكذب على الله ورسوله ما الله أعلم.

وقاعدة الإسرائيليات التي قررها العلماء:

١- أن توافق ما عندنا من النصوص فنقبلها.

٢- أن تخالف ما عندنا من النصوص فنكذبها.

٣- أن لا توافق ولا تخالف فإننا نتوقف فيها، وهي التي عناها الرسول ﷺ بقوله: « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ

رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ البقرة: ١٣٦ رواه البخاري.

وقوله: «حَدَّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرْجَ» متفق عليه.

وقد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنه أنه أنكر على من يحدث بأحاديث أهل الكتاب، فقال فيما أخرجه البخاري: عن عبيد الله بن عبد الله أنه قال: «يا معشر المسلمين! كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتاب الله الذي أنزله على نبيه أحدث أخبار الله، تقرؤونه محضاً لم يُشب، وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُساءلتهم، لا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أنزل إليكم»^(١).

وأكثر ما يروى من هذه الإسرائيليات إنما يروى عن أربعة أشخاص هم: عبد الله بن سلام، وكعب الأحمري، ووهب بن منبه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج.

شروط التفسير النقلي:

بما أن التفسير النقلي يتعلق بعلم الرواية، فإنه مرتبط بعلم الحديث رواية ودراية.

ومن أهم الشروط التي تتعلق بالتفسير بالمأثور:

أ - أن يكون المفسر على معرفة بالسنة رواية ودراية.

أما رواية: فيعرف صحة الأحاديث والآثار، إذ لا يصح تفسير الآيات بالأحاديث الضعيفة، فضلاً عن تفسيرها بالأحاديث المكذوبة والواهية والمنكرة!

١- رواه البخاري في الشبهات (٥/ ٢٩١).

وأيضاً: أن يكون ملماً بما ورد في السنة مما يتعلق بالتفسير من أحاديث وأثار.

أما دراية: فأن يكون ممن يحسن الجمع بين الحديث والآية، قادراً على التنسيق بين الروايات المختلفة، صادراً عن أقوال الأئمة المجتهدين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان في ذلك.

التفسير بالرأي

أما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، لما يتضمن من القول على الله تعالى بغير علم، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٦) الإسراء: ٣٦.

وقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١١٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١١٩﴾ البقرة: ١٦٨ - ١٦٩ ووصف الله تعالى أهل الشرك بقوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ (٢٣) النجم: ٢٣.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فمن قال في القرآن برأيه فقد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ، لأنه لم يأت الأمر، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ، والله أعلم.

ولهذا تخرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما جاء عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «أي أرضٍ تُقلني، وأي سماءٍ تظلني، إذا قلت في كتاب

الله ما لا أعلم» إسناده صحيح، رواه أبو عبيد وغيره.

وعن أنس: أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر ﴿وَفَكِهَةٌ وَأَبَا﴾ عيس: ٣١ فقال: «هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر!» رواه أبو عبيد والطبري بسند صحيح^(١).

وعن ابن أبي مليكة أن ابن عباس: «سُئِلَ عن آية لو سُئِلَ عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها» وسنده صحيح رواه ابن جرير.

وعنه قال: سأل رجل ابن عباس عن يوم كان مقداره ألف سنة، فقال ابن عباس: ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ قال الرجل: إنما سألتك لتحدثني، فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله في كتابه، والله أعلم بهما. فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم.

وقال مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب: أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن، قال: إنا لا نقول في القرآن شيئاً.

وقال الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب: أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن رواه ابن جرير.

وعن عبد الله بن عمر قال: «لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم: سالم بن عبد الله والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب ونافع» رواه ابن جرير بسند صحيح.

١- هذا محمول على أنه إنما أراد استكشاف ماهية الأب، وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل لقوله

تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ (٢٧) وَعَبْنًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَكِهَةً وَأَبَا﴾ (٣١) عيس:

عيس: ٢٧ - ٣١

وقال أيوب وابن عون وهشام الدستوائي عن محمد بن سيرين: سألت عبدة السلماني (وهو تابعي كبير مخضرم وثقة ثبت) عن آية من القرآن، فقال: «ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن، فاتق الله، وعليك بالسداد» رواه ابن جرير (١/٨٦).

وعن الشعبي عن مسروق قال: «اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله» رواه أبو عبيد.

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف، محمولة على تخرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً، فلا حرج عليه.

ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوالاً في التفسير، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لُبِّيئْتُهُ لِّلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ آل عمران: ١٨٧.

ولما جاءه في الحديث المروي من طرق: «من سئل عن علم فكتمه، أجم يوم القيامة بلجام من نار» رواه الطبراني في الكبير والأوسط، عن عبد الله ابن عمرو ونحوه عن أبي هريرة عند أبي داود والترمذي وابن ماجه (١).

وقال الإمام المفسر أبو جعفر بن جرير بعد أن ساق بعض الآثار السابقة: وأما الأخبار التي ذكرناها عن ذكرناها عنه من التابعين بإحجامه عن التأويل، فإنه من فعل ذلك منهم كفعل من أحجم منهم عن الفتيا في النوازل والحوادث، مع إقراره بأن الله جل ثناؤه لم يقبض نبيه إليه، إلا بعد إكمال الدين لعباده، وعلمه بأن الله في كل نازلة وحادثة حكماً موجوداً بنص أو بدلالة، فلم يكن إحجامه عن القول إحجام جاحد أن يكون لله فيه حكم موجود بين أظهر عباده، ولكن إحجام خائف أن لا يبلغ في اجتهاده ما كلف الله العلماء من عباده فيه، فكذلك معنى إحجام من أحجم عن القيل في تأويل القرآن

١- مقدمة في أصول التفسير (ص ١٠٨ - ١١٥) باختصار و تصرف يسير.

وتفسيره من علماء السلف^(١).

قلت: فالخلاصة مما سبق: أن من خاض في تفسير القرآن دون أن يراعى في تفسيره الطرق السابقة من تفسير القرآن بالقرآن، ثم تفسيره بالسنة، ثم بأقوال السلف، أو خالف بتفسيره المعلوم من اللغة العربية، فهذا هو المذموم الذي جعل هواه رائده، ومذهبه قائده، وكذا من أجاز لكل أحد أن يفسر كتاب الله تعالى؟! ويقول فيه بغير علم؟!!

وأما من وافق تفسيره الطرق الحسنة المذكورة، واجتهد في الوصول إلى المراد بالآيات، فهذا مأجور أجرين إن هو أصاب، وأجرأ واحداً إن هو أخطأ.

وذلك أن الصحابة رضي الله عنهم قد بينوا للخلق معاني القرآن العظيم، ومعلوم أنهم لم يسمعوا كل ما قالوه في تفسيره من النبي ﷺ، إذ لم يُبين لهم النبي ﷺ كل آية من القرآن، بل بين لهم ما أشكل عليهم منه، والباقي توصلوا إلى معانيه بمعرفتهم بالقرآن وبالعربية وباجتهادهم.

وهذا معنى دعاء النبي ﷺ لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل» فلو كان التأويل مقصوراً على السماع والنقل كالتنزيل، لما كان هناك فائدة لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء، فدل ذلك على أن التأويل أمر آخر وراء النقل والسماع، وذلك هو التفسير بالاجتهاد.

المفسرون بالرأي المذموم

وهم كما سبق المخالفون للمنهج السليم في تفسير القرآن الكريم، من تفسير القرآن بالقرآن، ثم تفسيره بالسنة ثم بأقوال السلف رضي الله عنهم، وهم كما قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «قوم اعتقدوا معاني، ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها!» وقال: «وهم صنفاً: تارة يسلبون لفظ القرآن وما دل عليه وأريد به، وتارة يحملونه على ما لم

١- جامع البيان.

يدل عليه ولم يرد به! وفي كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنى باطلاً، فيكون خطأهم في الدليل والمدلول، وقد يكون حقاً فيكون خطأهم فيه في الدليل لا في المدلول، وهذا كما وقع في تفسير القرآن فإنه وقع أيضاً في تفسير الحديث.

فالذين أخطئوا في الدليل والمدلول مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذهباً يخالف الحق الذي عليه الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة، كسلف الأمة وأئمتها، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم تارة، يستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها، وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلم عن مواضعه.

ومن هؤلاء فرق الخوارج والروافض والجهمية والمعتزلة والقدرية والمرجئة وغيرهم.

وهذا كالمعتزلة مثلاً فإنهم من أعظم الناس كلاماً وجدالاً، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم، مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم. ومثل كتاب أبي علي الجبائي، والتفسير الكبير للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني، والجامع لعلم القرآن لعلي بن عيسى الرماني، والكشاف لأبي القاسم الزمخشري^(١).

فهؤلاء وأمثالهم اعتقدوا مذاهب المعتزلة، وأصول المعتزلة خمسة يسمونها هم: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، وإنفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وتوحيدهم هو توحيد الجهمية الذي مضمونه نفي الصفات، ولذلك قالوا: إن الله لا يُرى، وإن القرآن مخلوق، وإنه تعالى ليس فوق العالم، وإنه لا يقوم به علم ولا قدرة ولا حياة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا مشيئة، ولا صفة من الصفات.

وقد وافقهم على ذلك متأخرو الشيعة، كالمفيد وأبي جعفر الطوسي وأمثالهم، ولأبي جعفر هذا التفسير على هذه الطريقة، لكن يضم إلى ذلك قول الإمامية الإثنا عشرية، فإن ١- المشهور من هذه الكتب الكشاف الذي طبع مراراً، وتعقبه ابن المنذر المالكي وغيره وبيان مواطن الزلل أو الخطأ في الدليل والمدلول، و الكتاب ملئ بتحريفات الزمخشري، وسيأتي كلام شيخ الإسلام فيه.

المعتزلة ليس فيهم من يقول بذلك، ولا من ينكر خلاف أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.
والمقصود أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من
الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، لا في رأيهم ولا في تفسيرهم.
وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة، إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة، وذلك من
جهتين: تارة من العلم بفساد قولهم، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن، دليلاً
على قولهم أو جواباً عن المعارض لهم.

ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحاً، ويدس البدع في كلامه وأكثر الناس لا
يعلمون، كصاحب «الكشاف» ونحوه، حتى إنه يروج على خلق كثير، ممن لا يعتقد
الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله.

المكي والمدني:

بلغ من عناية الصحابة والتابعين بالقرآن الكريم وضبطه، معرفة ما نزل منه بمكة أو المدينة
أو غيرهما من الأماكن، كما سبق أن نقلنا عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: «و الله
الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من
كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل،
لركبت إليه»^(١).

ومعرفة المكي والمدني مهم في التفسير، وذو فائدة جلية في معرفة تاريخ التشريع، والتدرج
في الأحكام، والعلم بالناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، ومعرفة أسلوب الدعوة، وتنوع
الخطاب الإلهي لهذه الأمة باختلاف أحوالها.

وقد عني العلماء بتحقيق المكي والمدني عناية فائقة، فتتبعوا القرآن آية آية، وسورة سورة،

١- رواه البخاري في فضائل القرآن (٤٧/٩).

لترتيبها وفق نزولها، مراعين في ذلك الزمان والمكان والخطاب، لا يكتفون بزمن النزول، ولا بمكانه، بل يجمعون بين الزمان والمكان والخطاب، وهو تحديد دقيق يعطي للباحث المنصف صورة للتحقيق العلمي في علم المكي والمدني، وهو شأن علمائنا في تناولهم لمباحث القرآن الأخرى.

إنه جهد كبير أن يتتبع الباحث والمفسر منازل الوحي في جميع مراحلها، ويتناول آيات القرآن الكريم فيعين وقت نزولها، ويحدد مكانه، ويضم إلى ذلك الضوابط القياسية لأسلوب الخطاب فيها، أهو من قبيل المكي أم من قبيل المدني؟ مستعيناً بموضوع السورة أو الآية، أهو من الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة الإسلامية في مكة، أم من الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة في المدينة؟

وإذا اشتبه الأمر على الباحث لتوافر الدلائل المختلفة، رجع بينها فجعل بعضها شبيهاً بما نزل في مكة، وبعضها شبيهاً بما نزل في المدينة.

وإذا كانت الآيات نزلت في مكان، ثم حملها أحد من الصحابة فور نزولها لإبلاغها في مكان آخر، ضبط العلماء هذا كله، فقالوا: ما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة^(١).

بعض الآيات المكية في السور المدنية والعكس:

لا يقصد بوصف السورة بأنها مكية أو مدنية، أنها بأجمعها كذلك، فقد يكون في السور المكية بعض الآيات المدنية، وفي السور المدنية بعض الآيات المكية.

فالوصف إذاً أغلبي، أي حسب أكثر آياتها.

ولذا يأتي في التسمية: سورة كذا مكية إلا آية كذا فإنها مدنية، وسورة كذا مدنية إلا آية

١- مباحث في علوم القرآن، لمناع (ص ٥٣).

كذا فإنها مكية كما نجد في المصاحف .

١- فمن أمثلة الآيات المكية في السور المدنية: «سورة الأنفال» مدنية واستثنى منها ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ ﴿٣٠﴾ الأنفال: ٣٠ .

٢- ومن أمثلة الآيات المدنية في السور المكية: «سورة الأنعام» هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة وهي: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّيْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْفُفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَّيْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۗ ذَلِكَُمْ وَصَّيْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ الأنعام: ١٥١ - ١٥٣ (١)

٣- ما نزل بمكة وحكمه مدني: ويمثل له بقوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ المائدة: ٣ فإنها نزلت بحجة الوداع بعرفات، كما جاء في حديث عمر رضي الله عنه في الصحيح .

٤- ما نزل بالمدينة وحكمه مكي: ويمثلون له بسورة الممتحنة، فإنها نزلت بالمدينة، فهي مدنية باعتبار المكان، ولكن الخطاب في ثناياها توجه إلى مشركي مكة .

ومثل هذا صدر سورة « براءة » نزل بالمدينة، والخطاب لمشركي مكة .

١- مباحث في علوم القرآن، لمناع (ص ٥٣) .

٥- ما نزل ليلاً وما نزل نهاراً: أكثر القرآن نزل نهاراً، أما ما نزل بالليل فقد جاء ذكره في بعض الأحاديث، مثل حديث كعب بن مالك في الصحيحين: «فأنزل الله توبتنا حين بقي الثلث الأخير من الليل» وهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ التوبة: ١١٧-١١٨.

وفي البخاري: من حديث عمر: قوله ﷺ: «لقد نزلت على الليلة سورة هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس» فقرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ الفتح: ١.

٦- ما نزل صيفاً وما نزل شتاءً: ويمثل العلماء لما نزل صيفاً بآية الكلاله التي في آخر سورة النساء، ففي صحيح مسلم: عن عمر: «ما راجعت رسول الله ﷺ في شيء، ما راجعته في الكلاله...، فقال: يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء».

و يمثلون للشتائي: بآيات براءة عائشة رضي الله عنها في سورة النور، وأولها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ..... مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ النور: ١١-٢٦، ففي الصحيح: عن عائشة رضي الله عنها: أنها نزلت في يوم شات «.

ومن أمثلته أيضاً: الآيات في غزوة الخندق من «سورة الأحزاب» حيث كانت في شدة البرد، كما جاء في الأحاديث الصحيحة^(١).

٧- ما نزل حضراً وما نزل سفراً: أما الحضري فأمثلته كثيرة، وأما السفري فله أمثلة منها: ﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾ البقرة: ١٩٦، الآية،

١- انظر الإتيان (١/ ٢٤ - ٣١) و مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان (ص ٥٥ - ٥٩).

نزلت بالحديبية، كما أخرجه أحمد عن كعب بن عجرة الذي نزلت فيه.

ومنها: آية التيمم، ففي الصحيح: عن عائشة أنها نزلت بالبيداء، وهم داخلون المدينة.

● وقد اعتمد العلماء في معرفة المكي والمدني على منهجين أساسين:

المنهج السماعي النقلی، والمنهج القیاسي الاجتهادي.

فالمنهج السماعي النقلی: يستند إلى الرواية الصحيحة عن الصحابة الذين عاصروا الوحي، وشاهدوا نزوله، أو عن التابعين الذين تلقوا عن الصحابة، وسمعوا منهم أسباب النزول، ومواقعها وأحداثها.

وسیأتي أمثلة لهذا المنهج فيما يأتي، وفي الكلام على أسباب النزول.

أما المنهج القیاسي الاجتهادي، فهو يستند إلى خصائص المكي وخصائص المدني، فإذا ورد في السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدني، أو تتضمن شيئاً من حوادثه، قالوا: إنها مدنية.

وإذا ورد في السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكي، أو تتضمن شيئاً من حوادثه، قالوا: إنها مكية.

فهو منهج يستند إلى الاجتهاد والنظر.

فمثلاً قالوا: كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية، فهي مكية، وكل سورة فيها فريضة أو حدّ، فهي مدنية، وهكذا.

ولهم أيضاً في التفريق بين المكي والمدني، ثلاثة آراء اصطلاحية:

الأول: اعتبار زمن النزول: فالمكي: ما نزل قبل الهجرة، وإن كان بغير مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة.

الثاني: اعتبار مكان النزول: فالمكي ما نزل بمكة وما جاورها، كمنى وعرفات والحديبية، والمدني ما نزل بالمدينة وما جاورها، كأحد وعباء ولسع.

والثالث: اعتبار المخاطب: فالمكي ما كان خطاباً لأهل مكة، والمدني: ما كان خطاباً لأهل المدينة.

فمثلاً قالوا: ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ مكي، وما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مدني.

وبالملاحظة يتبين أن هذا الضابط لا يطرد، فسورة البقرة مدنية وفيها: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ وسورة الحج مكية وفيها: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(١).

وقيل: قولهم هو مكي، هذا إنما هو في الأكثر، وليس بعام^(٢).

ميزات المكي والمدني:

استقرأ العلماء السور المكية والمدنية، واستنبطوا ضوابط قياسية لكل من المكي والمدني، تبين خصائص الأسلوب والموضوعات التي يتناولها، وخرجوا من ذلك بقواعد وميزات.

● ضوابط المكي وميزاته الموضوعية:

١- كل سورة فيها سجدة فهي مكية.

١- نظر الإيتقان للسيوطي (١/ ١١-١٢) ومباحث في علوم القرآن (ص ٦١-٦٢).

٢- الإيتقان (١/ ٢٣).

٢- كل سورة فيها لفظ « كلا » فهي مكية، ولم ترد إلا في النصف الأخير من القرآن، وذكرت ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة.

٣- كل سورة فيها ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ ﴾ وليس فيها ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ فهي مكية، إلا سورة الحج ففي أواخرها ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ الحج: ٧٧ ومع هذا فإن كثيراً من العلماء يرى أن هذه الآية مكية كذلك.

٤- كل سورة فيها قصص الأنبياء، والأمم الغابرة، فهي مكية سوى البقرة.

٥- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس، فهي مكية، سوى البقرة كذلك.

٦- كل سورة تفتتح بحروف التهجي كـ ” ألم ” و ” ألر ” و ” حم ” ونحو ذلك فهي مكية، سوى الزهراوين: وهما البقرة وآل عمران، واختلفوا في سورة الرعد.

هذا من ناحية الضوابط، أما من ناحية المميزات الموضوعية، وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتي:

١- الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده، وإثبات الرسالة، وإثبات البعث والجزاء، وذكر القيامة وهولها، والنار وعذابها والجنة ونعيمها، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية، والآيات الكونية.

٢- وضع الأسس العامة للتشريع والفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء، وأكل أموال اليتامى ظلماً، ووآد البنات، وما كانوا عليه من سوء العادات.

٣- ذكر قصص الأنبياء والأمم زجراً لهم، حتى يعتبروا بمصير المكذابين قبلهم، وتسلية

لرسول الله ﷺ وسلم حتى يصبر على أذاهم ويطمئن إلى الانتصار عليهم.

٤- قصر الفواصل مع قوة الألفاظ، وإيجاز العبارة، بما يصح الأذان، ويشدد قرعه على المسامع، ويصعق القلوب، ويؤكد المعنى بكثرة القسم، كقصار المفصل إلا نادراً.

× ضوابط المدني وميزاته الموضوعية:

١- كل سورة فيها فريضة أو حد، فهي مدنية.

٢- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية، سوى العنكبوت فإنها مكية.

٣- كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب، فهي مدنية.

هذا من ناحية الضوابط، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب، فيمكن إجمالها فيما يأتي:

١- بيان العبادات، والمعاملات، والحدود، ونظام الأسرة، والمواثيق وفضيلة الجهاد، والصلوات الاجتماعية، والعلاقات الدولية في السلم والحرب، وقواعد الحكم، ومسائل التشريع.

٢- مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ودعوتهم إلى الإسلام، وبيان تحريفهم لكتب الله، وتجنّبهم على الحق، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم.

٣- الكشف عن سلوك المنافقين، وتحليل نفسياتهم، وإزاحة الستار عن خباياهم، وبيان خطرهم على الدين.

٤- طول المقاطع والآيات في أسلوب يقر الشريعة ويوضح أهدافها ومراميها^(١).

١- مباحث في علوم القرآن (ص ٦٣ - ٦٤)، وانظر الإتقان (٢٢ - ٢٣).

المحكم والمتشابه

المحكم والمتشابه مما ورد ذكره بكتاب الله تعالى، حيث يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ آل عمران: ٧.

فيخبر تعالى أنه تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي منه ﴿الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ فِيهِ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ أي: واضحات المعاني، لا تحمل إلا وجهاً واحداً في التفسير، فلا تشبهه بغيرها.

﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: أصله الذي يرجع إليه، ويعول عليه، ويرد إليه ما تشابه من آياته وأشكل من معانيه.

﴿وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ أي: محتملات لأكثر من معنى، ولا يتعين أحد الاحتمالين بمجردهما، حتى تضم المحكم.

فأما أهل العلم الراسخين فيه، المتمكنون منه، فيعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأنه حق كله محكمه ومتشابه، لا يتناقض ولا يختلق، ولذا فهم يردون المتشابه إلى المحكم، فيصير كله محكماً، ويقولون ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ آل عمران: ٧ أي: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها الصحيح، أولوا العقول السليمة، والفهوم المستقيمة^(١).

١- انظر تفسير ابن كثير (١/٢٤٣) بتهذيبنا، وتفسير السعدي وغيرهما

الناسخ والمنسوخ

النسخ معناه في اللغة: الإزالة والإبطال، يقال: نسخت الشمس الظل، أي: أزالته.

والنسخ أيضاً: النقل، يقال: نسخت الكتاب، أي: نقلته، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الجاثية: ٢٩.

أما النسخ في الاصطلاح: فهو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر، أي: أن يرفع الشارع حكماً من أحكامه بخطاب متأخر عنه.

حكمة النسخ:

١- إظهار الربوبية لله تعالى، والتصرف في الأشياء، فيحكم فيها بما يريد، ويفعل ما يشاء.

٢- إظهار العبودية له سبحانه، والانقياد له بالطاعة، بكمال الخضوع كيفما يشاء، فيتميز المطيع المنقاد من غيره.

٣- التيسير ورفع المشقة عن العباد، وذلك بنسخ الأمر الشديد إلى اليسير، قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ المائدة: ٦.

وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ البقرة: ١٨٥.

٤- التدرج بالشرعية ليسهل قبولها والعمل بها، فيما يشرع حالة الضعف لا يصلح لحالة القوة، وهكذا حتى استقرت الشريعة.

وقوع النسخ في القرآن:

دليل وقوعه قوله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿١٠٦﴾ البقرة: ١٠٦.

وورد في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ۗ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ ﴿١٠٢﴾ النحل: ١٠١-١٠٢.

وفي قوله سبحانه: ﴿ سُنُقِرْتِكَ فَلَا تَنْسَىٰ ۖ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ ﴾ ﴿٦﴾ الأعلى: ٦-٧.

أنواع النسخ:

١- نسخ الحكم وبقاء التلاوة، وهو الأكثر، كآية الاعتداد بالحوال ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ البقرة: ٢٤٠. نسخت بآية الاعتداد بأربعة أشهر وعشر.

٢- نسخ التلاوة وبقاء الحكم، كآية الرجم، وآية الرضاع، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان فيما نزل من القرآن (عشر رضعات معلومات يحرم من) فنسخن (بخمس رضعات معلومات) فتوفي رسول الله ﷺ وهي مما يقرأ من القرآن. رواه مسلم.

٣- نسخ التلاوة والحكم معاً.

فيما يعرف به النسخ:

النسخ لا يعرف بالقياس أو الاجتهاد، وإنما يعرف بالدليل النقل من الكتاب والسنة،

لأن مستند النسخ هو الوحي فقط، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۚ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَأْتِنَا بِشُرَّاءٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي ۚ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ يونس: ١٥.

فإذا كان الرسول ﷺ يأمره الله أن يقول للناس ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ يونس: ١٥ لأنني رسول محض، ليس لي من الأمر شيء ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ يونس: ١٥ فإني عبد مأمور، فكيف بغيره من الناس!؟

أمثال القرآن

ضرب الله تعالى الأمثال في القرآن، تذكيرا للناس، وعبرة وعظا، وتقريبا للمعاني، وتوضيحا للمراد من الآيات الكريمة لفهم السامع والقارئ، أو تأكيدا لمعنى المثل والحكمة منه.

كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ الزمر: ٢٧ ويقول الله تعالى ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ العنكبوت: ٤٣

أي: نضرب الأمثال لأجل انتفاع الناس وتعليمهم، لأن تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، فيتضح المعنى المقصود.

وقوله ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ حث على تدبرها، ومدح لمن يعقلها، وأن صاحبها من أهل العلم، لأن فيها العلم النافع، والمسائل الجليلة، وأكثرها في المعتقد وأصول الدين.

وامتن الله عز وجل على الأمم بذلك، فقال ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ إبراهيم: ٤٥، وقال ﴿ وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ﴾ الفرقان: ٣٩ فبهذا نعلم أهمية الأمثال في القرآن الكريم، لأن الله جل وعلا رفع من شأنها وجعل عقلاؤها من علامات العلم والمعرفة.

وهي أيضا: من بديع القرآن الكريم، ومعجزاته الخالدة (١).

وأمثال القرآن على نوعين:

١- ظاهر مصرح به، وهو ما جاء مسبقا بكلمة « مثل » أو « مثلهم » أو « ضرب الله مثلا ».

٢- كامن يفهم منه المثل، ويستخرج منه بالفهم، كما قيل للحسن بن الفضل: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد في كتاب الله: خير الأمور أوساطها؟ قال: نعم

في أربعة مواضع، قوله تعالى ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ البقرة: ٦٨ وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ ﴿٦٧﴾ الفرقان: ٦٧ وقوله ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ الإسراء: ٢٩ وقوله ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ الإسراء: ١١٠

نماذج من أمثال القرآن:

فمن الأمثال في سورة البقرة:

قوله ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٧﴾ صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّا اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ البقرة: ١٧-٢٠.

وقوله ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ البقرة: ١٧١ وقوله ﴿مَثَلِ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةٌ﴾ البقرة: ٢٦١

وقوله ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ البقرة: ٢٦٤ وقوله ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَأَنْتَ أَكُلُهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ البقرة: ٢٦٥

١- يروى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «نزل القرآن على خمسة أوجه: حلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال، فاعملوا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وأمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال». وهو ضعيف جدا، كما في مشكاة المصابيح (١٨٢).

وقد أفرده بعض العلماء بالتأليف، ولشمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (ت ٧٥٤هـ) شرح مطول للأمثال القرآن، طبع في كتاب مستقل، وهو جزء من كتابه «إعلام الموقعين».

ومن كتب المعاصرين: الأمثال في القرآن الكريم، للدكتور محمد جابر الفياض / مطبوع.

حَوْلَ جَهَنَّمَ حَيْثَا ﴿٦٨﴾ مريم: ٦٨ و ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ النساء: ٦٥ و ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ المعارج: ٤٠

وأقسم بعضهم مخلوقاته، كقوله تعالى ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ الصافات: ١ وقال ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ الواقعة: ٧٥ - ٧٦ وفي سورة الشمس أحد عشر قسما متتالية قال ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا لِلَّهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾﴾ الشمس: ١ - ٧ وقال ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُسِّ ﴿١٥﴾﴾ التكويد: ١٥ وقال ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾ الانشقاق: ١٦ - ١٧ وغيرها من الآيات.

أنواع القسم :

القسم في القرآن إما ظاهر كما في الآيات السابقة، وإما مضمرة تدل عليه اللام - لام القسم - كما في قوله ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ آل عمران: ١٨٦ أو تدل عليه واو القسم، كما في قوله ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ مريم: ٧١.

وقد أُلّف في هذا الباب، الإمام ابن القيم كتابه: أقسام القرآن، وهو مطبوع متداول.

تمت بحمد الله ونعمته